إدمان الوهم

بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

تم نشر المقال التالي في 23 آب 2025 على منصة (كلنا شركاء في الوطن) : https://www.facebook.com/share/p/19ojdBJDRK/

الإدمان على شيء يعني التعود عليه والالتزام بتعاطيه دون القدرة عن الإقلاع عنه، كالإدمان على السجائر أو المسكرات أو المواد المخدرة أو لعب القمار، هو سيدك الآن و لن يسمح لك أن تغادره، هو يغريك أنك تعيش في عالم من النشوة الخاصة، عالمك وحدك، لاينازعك أحد فيه. إلا أن عالم الإدمان مميت، فمدمن التدخين سينتهي به الأمر بسرطان الرئة، ومدمن الخمر لامحالة مهدد بتشمع الكبد، أما مدمن المخدرات فحدث ولاحرج، هو من سيفقد توازنه العائلي والمجتمعي وقد ينتهي به الأمر إلى الموت بجرعة زائدة أو فقدان المناعة أو العقم. و أزيد في القول أن جميع الإدمانات قد يتعدى خطرها من الشخصي إلى إيذاء وموت الآخرين.

إن رحلة العلاج من أي إدمان طويلة ولاتقتصر على العلاج الجسدي فقط بل يتعداها لعلاج نفسي وسلوكي للمدمن، أما الشرط الأساس ألا يتم السماح له بالاختلاط بغيره من المدمنين حتى لاتتفجر فيه ذاكرته الكامنة، ذاكرة الإدمان.

لقد كان أبي مصاحباً لسيجارته لفترة طويلة ككثير من الكُتَّاب الذين اعتادوا ألا تأتيهم شياطينهم الإبداعية إلا على دخان سجائرهم. عندما أعلمه الطبيب وبمنتهى الحزم في سن السبعين أن استمراره على التدخين سيعرض صحته للخطر، ألقى أبي على علبة سجائره النظرة الأخيرة ولم أره يدخن بعد هذه النظرة، ولكن بقي سعاله الشديد يوقظني باكراً لمدة 20 عاماً. آه كم أفتقد هذا السعال اليوم رحمه الله.

كل هذه المقدمة كانت لآتي على أخطر أنواع الإدمانات، وهو إدمان الوهم والذي امتازت به كثير من المجتمعات المأزومة ولاسيما مجتمعاتنا، والوهم هنا قد يعني فكراً أو شخصاً يدمنه أحدهم فيكون حتفه كما جميع أنواع الإدمانات التي ذكرتها.

في رائعته (رجال في الشمس) يروي غسان كنفاني عن ثلاثة فلسطينيين حلموا أن يعبروا من البصرة للكويت لتحسين شروط معاشهم، ولكنهم وضعوا ثقتهم بأبي الخيزران، وأبو الخيزران هذا ليس كأي أحد، فهو مناضل ومجاهد فلسطيني، مخصي فَقَدَ رجولته في أحد المعارك ضد اليهود، لقد قام بتوصيف نفسه أنه آمن بالوطن فضاعت رجولته وضاع الوطن، لقد صنع أبو الخيزران للفلسطينين الثلاثة (وهم) القدرة على تهريبهم بخزان سيارته عبر صحراء قاحلة في لهيب شهر آب، فوثقوا به وأي ثقة، لقد أدمنوا الوهم أن خزان أبي الخيزران من سيحقق لهم حلمهم حتى انتهى بهم الأمر محترقين ومختنقين داخل الخزان. لم يقم أبو الخيزران بواجب دفنهم وقراءة الفاتحة عليهم، بل اكتفى بأن ألقاهم في حاوية قمامة بعد أن أفرغ جيوبهم من النقود وأيديهم من الساعات، لقد أنهى غسان كنفاني روايته بتعجب أبي الخيزران الشديد وهو يقول: (لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟).

كم كان لمنطقتنا أحلام كبيرة، أحلام في الحرية، أحلام في التنمية، إلا أننا اخترنا وبإرادتنا النزول في وهم خزان أبي الخيزران (المناضل سابقاً) للوصول لتلك الأحلام، هذا الخزان الذي هو عبارة عن قعر مظلم وجدران تعلوها فوهة لايفتحها لنا إلا أبو الخيزران.

لقد مر على تاريخنا مناضلون كثر، فعبد الناصر كان مقاتلاً في الفلوجة ضد اليهود، فركبنا معه في خزان وهمه حتى انتهى بنا الأمر بهزيمة 1967، أما حلم تحرير فلسطين فقد اخترنا أن يقودونا إليه مناضلون كثر، وماكان أكثرهم، وماكان أكثر من نضالهم، هم من وضعونا بأنفسهم في خزان الاستبداد حتى أحرقونا، هم لم يكتفوا أن تحرقنا (شمس آب) كرواية كنفاني بل أشعلوا ناراً أخرى على الخزان.

أثناء المحرقة السورية، غادر العديد منا وهم خزان أبي الخيزران الذي أدْمَنَّاهُ لأكثر من خمسين عاماً إلى دول أخرى، لقد عرف الكثيرون منا أن الدنيا أكبر بكثير من خزان أبي الخيزران، وقد عرف الكثيرون منا أنهم يستطيعون الركض بحرية دون أن تحاصرهم جدران خزان أبي الخيزران. لقد اعتقدنا أن 14 عاماً كفيلة بعلاجنا من إدماننا القاسي على وهم خزان أبي الخيزران.

بعد السقوط-سقوط الأسد-، تفجرت العصبيات التي تحدثت عنها في مقالات عدة سابقة، وعادت لنا ذاكرة الإدمان العصبوي الكامنة والتي كدنا أن ننساها في مغترباتنا، واختارت كل عصبية لنفسها أبا خيزران قائداً عليها وعادت لتختار طواعية النزول في خزانه، خزان الوهم. لقد عدنا لندمن وهم الفكر العصبوي الذي يحمله لنا هذا الخزان.

لقد آن لكم يامدمني خزان الوهم العصبوي الذي صنعه لكم أبو الخيزران وأمثاله أن تغادروه، وتبدؤوا رحلة العلاج من هذا الإدمان وأن تبتعدوا عمن لم يعد لهم شفاء منه قبل أن تجدوا أنفسكم في حاوية القمامة كما رجال كنفاني.

لقد آن لكم أن تدقوا باب الخزان طالما مازلتم أحياء، عسى أن يسمعكم أحد فيخرجكم قبل أن تختنقوا في الداخل، وتأكدوا أن أبا الخيزران لن يفتح لكم فوهة الخزان.

أما آن لكم أن تتخلوا عن عصبياتكم العمياء التي لن تقودكم إلا إلى نهاية عمياء كوعد من الله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا).

أما آن لكم أن تعيدوا إلى حياتكم أهازيج الأفراح لاترانيم الجنائز، جنائزكم التي يعدكم بها أبو الخيزران في خزانه.